المبحث الثالث

الاتجاهات النظرية لتطور علم دراسة الإنسان في القرن العشرين[1]

لقد دفع الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور بصورة جذرية وسريعة في عدد من المجالات، العقل الإنساني إلى نبذ الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي تحفظ في الغالب على قدرة العقل الإنساني في التوصل إلى الحقيقة المطلقة؛ ونتيجة لذلك شهدت بدايات القرن العشرين قصور الميتافيزيقا عن حل المشكلات الإنسانية الجديدة إزاء ما قد قدمه العلم في القرن السابق، وما أحرزه من تقدم في العقدين الأولين من القرن العشرين، وما نتج عن ذلك من قيم جديدة يشع منها التفاؤل بمستقبل الإنسانية، والدعوة إلى النظر إلى العقل والمنطق المحسوس كأداة للمعرفة. إلا أنه سرعان ما عصفت أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) بهذا التفاؤل، وبدأ الفلاسفة ينظرون إلى مشكلات القرن العشرين في إطار من التشاؤم إلى حد أن اعتقد بعضهم أن العالم مقبل ولا شك على عصر حالك بخاصة على أثر ظهور الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا خلال سنوات ما بعد الحرب، وأن ذلك يقضي على الآمال التي كانت معقودة على تحرير الإنسان، وإحراز تقدم حضاري كبير

---

(١) نكرر الملاحظة التي أشرنا إليها في (الصفحة ١٧).

obeikandl.com

من خلال الاستخدامات البناءة للاكتشافات العلمية التي كانت قد برزت في ميادين الفيزياء (علوم الطبيعة) وبخاصة الطب. ولم يجد هؤلاء الفلاسفة التشاؤميون مخرجاً من أزمة الحياة الإنسانية في ذلك (العالم السيئ) إلا أن يعود الإنسان إلى إحياء قيمه الدينية والتمسك بها، كما دعا إلى ذلك (مثلاً) كل من (كارل بارث) السويسري و(راينهو لدنيبوز) الألماني.

لقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في إطار ما عرف بالحركة الوجودية والتي شاعت بخاصة في فرنسا نحو عام (١٩٣٨) على يد (جان بول سارتر) (١٩٠٥-١٩٨٠). إلا أنه إلى جانب الوجودية ظهر اتجاه آخر اتصف بالتفاؤل إلى حد كبير، وكان الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) (١٨٥٩-١٩٥٢) أبرز أعلامه، فقد تبنى (ديوي) في كتابه الشهير «إعادة البناء في الفلسفة» اتجاهاً مناهضاً للفلسفة الميتافيزقية، دعا فيه إلى ضرورة الاهتمام بالبحث عن القوى المعنوية، التي تحرك مناشط الإنسان الذي اعتقد (ديوي) أن لديه الكثير من الإمكانات والقدرات التي تستطيع أن تخرجه من أزمته الراهنة، وتساعده على حل مشكلاته المعقدة المتزايدة يوماً بعد يوم، دون الحاجة إلى اللجوء إلى قوى خارج الطبيعة.

إلى جانب تلك التيارات الفلسفية هناك أيضاً الدين الذي كان له - ولا يزال ولو بدرجات متفاوتة - تأثيره في تشكيل ثقافة القرن العشرين (إذا صح هذا التعبير) والتي أثرت بدورها في الفكر الأنثروبولوجي كما سنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد. لقد استمر تأثير الدين في النظم الاجتماعية قوياً كما كان في القرن التاسع عشر، خاصة خلال العقود

الأولى للقرن العشرين. إلا أن تعاليم الكنيسة وشوكتها سرعان ما نالهما الكثير من النقد والتحدي من قبل الحركات المناهضة التي شجعها ما قام من خلافات بين الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية، وعدم مواكبتهما لروح العصر واتجاهاته. لقد كان للتيارات التحررية والإنجازات العلمية والتكنولوجية الهائلة تأثير كبير في الإنسان الذي بدأ يشعر بأهميتها في حياته أكثر مما استطاعت أن تقدمه له الكنيسة من أفكار أو حلول. الأمر الذي جعل (البابا جون الثالث والعشرين) يدعو القساوسة في نهاية الخمسينيات إلى تقبل فكرة الحوار ودعم حرية المناقشة في أمور الدنيا والدين، وأن يسترشدوا كذلك بطرائق جديد، تجاه بث روح الإيمان والالتزام بتعاليم الكنيسة، غير وسائل القمع والتهديد التقليدية.

وقد شهدت الكنيسة الكاثوليكية تحدياً من قبل الشباب والنساء خاصة بسبب المواقف الصلبة والرجعية إزاء بعض المشكلات الإنسانية، مثل: مشكلة تحديد النسل والحاجة إليها في مواجهة الانفجار السكاني العالمي، وتأكيد مسائل الحرية الشخصية والإرادة الفردية. نشير (أيضاً) إلى موضوع زواج القساوسة الذي ترتب عليه أن ترك نحو (٤٤) قساً فرنسياً (في عام ١٩٧٠) عملهم احتجاجاً على قيود الكنيسة الخاصة بزواجهم، وتبعهم في ذلك آخرون بهولندا. هذا علاوة على أن ثورات الشباب التي عمت أجزاء كثيرة من العالم خاصة خلال عقد الستينيات - قد وجهت النقد اللاذع لتأييد الكنيسة لنظم الحكم الجائرة من دول العالم الثالث مثل: أمريكا اللاتينية، والسكوت على التدخل الأمريكي في فيتنام. ورغم

obeikandi.com

موقف الكنيسة الصلب لرفض التغير في كثير من الحالات والتشبث بمواقفها التقليدية إلا أنها لم تنجح في صدِّ رياح التغيير العاصفة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، الذي ازدهرت فيه الحركات التحريرية، واكتسبت شعبية كبيرة على النطاق العالمي، حتى بداخل الدول الغربية ذاتها. هذا إلى جانب أن التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل والسريع شكل تحدياً صارماً لتعاليم الكنيسة ودورها في توجيه الفكر الإنساني، الأمر الذي فرض عليها تحركات جديدة لمواكبة تغيرات العصر.

يجدر بنا (بصدد هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المشار إليه آنفاً) أن ننوه هنا إلى أن (العلم) قد شكل دعامة رئيسة من ثقافة القرن العشرين كما أن له كما سنوضح فيما بعد) صلة وثيقة بالفكر الاجتماعي والقضايا الإنسانية التي أثرت بدورها في تشكيل الدراسات الأنثروبولوجية، من حيث تحديد موضوعاتها ومناهجها وأهدافها. لقد أصبح إنسان القرن العشرين ينظر إلى (العلم) على أنه منقذ البشرية، ولو أن هذا قد أدار ظهره كلية إلى الدين. ولم يسلم العلم على الرغم من الإيمان به والانبهار بإمكاناته من النقد والخوف من نتائجه على الجنس البشري من ناحية تلوث الهواء والماء والبيئة بصفة عامة. وإنه لمن المحزن أن نرى الطفرة التقدمية الهائلة التي أحرزها في مجال علو م الفيزياء (البرت آينشتاين) (١٨٧٩-١٩٥٥). وغيره من العلماء في الثلاثينات، والتي انتهت بإمكان توليد الطاقة عن طريق تحطيم المادة إلى ذرات متناهية الصغر، كان قد نتج عنها إعداد قنابل ذرية دمرت مدينتين يابانيتين في عام (١٩٤٥)، قتلت الآلاف

من البشر، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد توالت الاكتشافات العلمية والتكنولوجية بعد ذلك، لتستخدم في إعداد أسلحة أكثر فتكاً وتدميراً مثل القنبلة الهيدروجينية والنيتروجينية إلى حدٍّ مد التنافس والصراع إلى غزو الفضاء في السبعينيات، والإعداد (الآن) إلى ما يشار إليه بحرب الكواكب.

وإلى جانب المجال الفيزيائي هناك التقدم العلمي الكبير في مجال العلوم البيولوجية، وذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى. إن اكتشافات الفيروس، والمضادات الحيوية، الأنسولين، والأمصال الواقية على سبيل المثال قد نتج عنها ثورة هائلة في مجالي الصحة والعلاج من الأمراض.

ويقال: إنه في عام (١٩٧٠) كانت شعوب العالم (بصفة عامة) تتمتع بصحة أفضل من أي وقت مضى في التاريخ، إلا أنه كان هناك (ولا يزال) عدد من الشعوب التي ابتليت بالحروب والأزمات الغذائية الطاحنة، وبالفقر المدقع، والصراعات الاجتماعية الداخلية، الأمر الذي جعل أفرادها يعانون من المرض ويفتقدون أية رعاية صحية أو حتى مقومات الحياة الإنسانية الأساسية.

ففي إطار هذه الملامح الأساسية لثقافة القرن العشرين من ناحية الفلسفة والدين والعلم نجد أن الفن والموسيقى والأدب قد تأثرت بتلك الثقافة كما أثرت فيها أيضاً. ففي هذا العصر (الذي سادت فيه الثورة على القديم والرغبة في التحرر من التقليد، والدعوة إلى آفاق جديدة، وأفكار متطورة تخلص الإنسانية من شرور التسلط السياسي والاضطهاد

الاجتماعي، وسباق التسلح المدمر) نجد أن الموسيقيين قد خرجوا في ألحانهم عن المألوف، كما عبر الفنانون في إطار الواقعية، أو التجريد عن مخاوفهم وآمالهم. وفي مجال الأدب عامة تأثر بعضهم بالاتجاه الفلسفي التشاؤمي، وعبروا في قصصهم ومسرحياتهم عن خيبة الأمل في إنقاذ البشرية في إطار الحروب العالمية المتتالية والصراعات السياسية المستمرة، والآثار المدمرة للاكتشافات العلمية بدلاً من توجيهها أساساً للاستخدامات الإنسانية. إن الإنسان يظهر في القصص الغربية وحيداً تائهاً وحائراً إزاء ما يحدث حوله في هذا «العالم المجنون» الذي تجري فيه الأمور بطريقة غير منطقية أو عقلانية أو حتى إنسانية، والإنسان الأوروبي الذي كان يمثل (في القرن التاسع عشر) ذروة التقدم الحضاري أصبح في القرن العشرين كائناً بائساً يستلهم العون ويبحث عنه من أي مصدر كان. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، اتجهت الأعمال الأدبية بصفة عامة نحو التعبير عن حالة التوتر التي يعيشها عالم القرن العشرين في عقوده الأولى، وعن حالة القنوط والاستخفاف بقيمة الحياة ذاتها التي تسود بين الأفراد كما صورها (مثلاً) (أرنست هيمنجواي) (١٨٩٩-١٩٦١) في قصته «وداعاً للسلاح» وأيضاً في أشعار اليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) بعنوان «الأرض الخراب».

نجد بعد ذلك أن الكساد الاقتصادي الذي عم الغرب في الثلاثينيات إلى جانب قيام النظم الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا، وما أعقب ذلك من حرب عالمية ثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) قد جعل الكتاب يتجهون إلى

الدعوة إلى الخلاص من تلك الشرور بإقامة مجتمعات عادلة، والاعتقاد بأن الكفاح ضد الظلم والاستبداد هو أهم أساسيات الحياة، وهو الذي يعطي الفرد حريته وكيانه وللإنسانية كرامتها، وقد برز مثلاً هذا الاتجاه واضحاً في أحداث قصص الروائي الفرنسي (أندريه مارلو) (١٩٠١-١٩٧٦) وكذلك في قصة همنجواي الشهيرة «لمن تقرع الأجراس» التي صدرت عام (١٩٤٠). وظل هذا الاتجاه سائداً لفترة طويلة، حتى فيما بعد الخمسينيات والستينيات بسبب استمرارية روح العصر المتمثلة في التغير السريع، ومناهضة القديم الجامد، والرسمية المقاومة للخلق والابتكار، والدعوة إلى الحرية الشخصية، ومناهضة المغلوبين من الأفراد أو الشعوب. ففي مجال الدعوة إلى حرية الفرد في حياته الخاصة ومناهضة النظم الاستبدادية تبرز لنا قصة دكتور (زيفاجو) الشهيرة التي صدرت في عام (١٩٥٣) للكاتب الروسي (بوريس باسترناك) كمثال جيد لهذا الاتجاه. كذلك نجد في قصص الكاتبين الأمريكيين الأسودين (جيمس بالدوين ولورين هانزيرج) مثالاً للعودة إلى تحرير السود في إطار المجتمع الأمريكي الذي يغلب عليه العنصر الأبيض.

ونتساءل الآن كيف أثرت هذه الاتجاهات جميعها في مسار الأنثروبولوجيا إبان القرن العشرين؟ وللإجابة عن هذا السؤال ربما يكون من الملائم أن نقسم هذا المسار إلى فرقتين رئيستين على أساس أن أحداث الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها يشكل (في حقيقة الأمر) فاصلاً هاماً ومميزاً.

رغم أن كثيراً من الاتجاهات الأنثروبولوجية قد تتداخل فيما بين تلك الفواصل الزمنية، ولغرض التبسيط في العرض وإبراز محتوى الاتجاهات الأنثروبولوجية وأهدافها مع ربط كل منها (كلما تيسر ذلك) بالجو الفكري والثقافي العام، وما يجري أيضاً من تحول في مجال العلوم الاجتماعية الأخرى - وبخاصة علمي النفس والاجتماع - يتناول الجزء التالي أهم الاتجاهات الأنثروبولوجية التي تبلورت وسادت خلال الفترة من بداية القرن العشرين حتى منتصف الأربعينات، أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الوصول إلى الأسباب التي يقوم على أساسها التباين بين الثقافات والاختلاف في المستويات الحضارية قد مثل قضية فكرية أساسية عبر العصور، كما كانت مجال كثير من الجدل والمناقشات التي تبلورت في نهاية الأمر فيما قدمه مفكرو القرن الماضي من نظريات أو تفسيرات تقوم على أساس فكرة التقدم الإنساني، وتطور الثقافات وفقاً لمراحل محددة، فالثقافات تتباين وتختلف لأنها تشكل أوضاعاً مختلفة في مراحل التقدم الإنساني، وقد سادت هذه الأفكار التطورية إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما استمرت خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، إلا أنها تلقت الكثير من النقد على أساس أنها استندت إلى الحدس والتخمين والاعتماد على مادة يشوبها التحيز وعدم الدقة، إلى جانب الالتجاء إلى التعميم المطلق لكل الثقافات في الزمان والمكان دون تقديم الدلائل والقرائن التي تثبت صحة فروض النظرية التطورية ومقولاتها.

ونتيجة لهذا النقد قلَّت أهمية النظرية التطورية تدريجياً وحل محلها محاولات جديدة للنظر إلى الثقافات الإنسانية وتفسير التباين بينها. فخلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين تبلورت ثلاثة اتجاهات رئيسة تفاعلت مع بعضها كما ارتبطت بمقتضيات العصر وما تتناوله العلوم الاجتماعية بصفة عامة من قضايا نظرية وعملية تتعلق بالفرد والمجتمع وأحوال العالم.

هذه الاتجاهات الثلاثة هي:

١- الاتجاه التاريخي - التجزيئي.
٢- الاتجاه البنائي - الوظيفي.
٣- الاتجاه التاريخي - النفسي.

وربما يجدر التنويه بأن استخدامنا هنا لكلمة اتجاه يشير إلى منطلق عام أو توجه فكري مميز، وعادة ما يندرج تحته أكثر من نظرية أو منهج في معالجة المشكلة نفسها. إن استخدامنا لكلمة مدرسة يعني الإشارة إلى مجموعة من الأفراد والأعمال التي تتبنى فكراً نظرياً مشتركاً، أو أولئك الذين يستخدمون منهجاً محدداً في جمع المادة وتحليلها؛ لهذا فمن المألوف أن يحتوي اتجاه معين على عدة من المدارس، وقد يحدث أيضاً أن تتباين وجهات النظر بين أصحاب المدرسة الواحدة الأنثروبولوجية، وكثيراً ما تستخدم كلمة النظرية في لغتنا اليومية للإشارة إلى فرض واعتقاد لم يثبت صدقهما، أو لم يقدم بعد الدليل أو البرهان على صحتهما. هذا ينطبق على استعمال كلمة نظرية في المجال العلمي أيضاً، إذ إن النظرية العلمية

obeikandl.com

تتضمن عنصرين أساسيين وهما: «السؤال» الذي تطرحه و«الإجابة» التي تقدمها، ولكي تثبت صحة هذه الإجابة لابد من وجود البرهان أو الدليل على صحتها، وهذه الأدلة والبراهين لا تستقيم دون حقائق ملموسة وأساس منطقي أو فروض تخضع للمشاهدة والتجربة. فالنظرية إذن هي «إطار فكري يفسر فرضاً معيناً أو مجموعة من الفروض ويضعها في نسق علمي مترابط».

ولا تنشأ النظرية من فراغ؛ ذلك أن النظريات العلمية والإنسانية ترتبط بالضرورة بالزمان والمكان ونوعية الحياة ومتطلباتها. ونظراً لأن هدف النظريات هو تكوين إجابات أو تفسيرات لأسئلة معينة فقد تتفق أو تتعارض النظريات مع بعضها ولكنها تقوم في النهاية بتكوين وحدة فكرية متصلة ومترابطة، كما تمثل نمواً مضطرداً للفكر الإنساني وللتقدم العلمي. ويلاحظ أيضاً أن كل نظرية تكون مجموعة معينة من المفاهيم التي تستخدمها في طرح السؤال وتقديم الإجابة عنه، وفي هذا الصدد تختلف النظريات من حيث إطار المفاهيم المستخدمة والمفهوم ما هو إلا كلمة أو عبارة عادية تشبه في كثير من الأحيان ما نستخدمه في أحاديثنا اليومية، إلا أن العلماء يعطونها - عادة - معنى بين العلماء. ويلجأ العلماء أيضاً إلى التجريد والتعميم عند تكوين مفاهيمهم وذلك بغرض استخدام هذه المفاهيم كأدوات تحليلية لوصف المادة موضع البحث ودراستها.

نقدم فيما يلي نبذة موجزة ومبسطة للغاية عن كل اتجاه من الاتجاهات المشار إليها سابقاً ونود إحاطة القارئ علماً بأنه من اليسير الحصول على

معلومات إضافية وتفصيلية عن كل اتجاه بمراجعة الكتب والمراجع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية والمشار إلى بعضها في قائمة المراجع.

إنّ هدفنا في هذا العرض هو أن نطلع القارئ على طبيعة تلك الاتجاهات ومكانها في تطور الفكر الأنثروبولوجي في إطار السياق الفكري العام للمجتمع، وطبيعة اهتمامات العصر.

أولاً: الاتجاه التاريخي - التجزيئي:

لقد سبق أن ذكرنا في المبحث السابق أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد سيطرة كبيرة للفكر التطوري في إطار الدراسة النظرية للتاريخ الحضاري للإنسانية، ومع ذلك فقد برز الاتجاه الانتشاري كمحاولة أخرى مناهضة للتطور لتفسير عمليات التغير الحضاري لتاريخ الإنسان، سواء أكان الفكر تطورياً أم انتشارياً فقد استمر الاهتمام باستخدام التاريخ لتفسير ظاهرة التباين الثقافي (الحضاري) للمجتمعات الإنسانية، وافترض المناهضون للتطور أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي، وعملية انتشار لبعض السمات الحضارية أو كلها، الأمر الذي يمكن أن يفسر في ضوئه التباين الحضاري للشعوب وليس في إطار عملية تطورية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الاتجاه قد تبنى منهجاً تاريخياً جغرافياً بتأثير كبير من المدرسة الجغرافية الألمانية، ورائدها (فردريك راتزال)، الذي ركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري.

وقد نمى تلاميذه هذا الاتجاه وبخاصة (هوينريخ شورتز) الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (أندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد (أمريكا) وكذلك (ليوفروينيوس) صاحب نظرية الانتشار الحضاري بين أندونيسيا وأفريقيا.

وانطلاقاً من هذا المنظور افترض بعضهم أن عملية الانتشار هذه ربما تكون قد بدأت من مركز حضاري محدد، ثم انتقلت عبر الزمان إلى أجزاء العالم المختلفة من خلال الاتصال بين الشعوب.

وقد ظهرت في أوروبا نظريتان مختلفتان بصدد هذا التفسير الانتشاري لعناصر الثقافة؛ ففي إنجلترا ظهرت المدرسة الانتشارية التي أرجعت نشأة الحضارة الإنسانية كلها إلى مصدر أو مركز واحد، وعن طريق الاحتكاك الثقافي بين الشعوب سواء عن طريق التجارة أو الغزوات أو الهجرة انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية أو الرئيسة واتسعت دائرة وجودها.

تزعَّم هذه المدرسة عالم التشريح البريطاني (اليوت سميث) ١٨٧١-١٩٣٧) وكان مهتماً بالآثار والهياكل البشرية ومعه أيضاً تلميذه (وليم بيري) (١٨٨٨-١٩٤٩) اللذان رأيا أن الحضارة الإنسانية نشأت وازدهرت على ضفاف نهر النيل في مصر القديمة منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً، وذلك بعد فترة طويلة عاشتها الإنسانية على الصيد وعندما توافرت الظروف وبدأت الاتصالات بين الجماعات والشعوب انتقلت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة إلى بقية العالم التي عجزت شعوبها عن الابتكار أو الاختراع فعوضت ذلك بالاستعارة والتقليد. إلا أن فريقًا من

الألمان والنمساويين وعلى رأسهم (فريتزجرابنور) (١٨٧٧-١٩٣٤) (وولهم شميدت) (١٨٦٨-١٩٥٩) رفضوا فكرة المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية الأقرب إلى الخيال أكثر من كونها علمية الأساس (على حد تعبير جان بواريه) وافترضوا وجود عدة مراكز حضارية أساسية في جهات متفرقة من العالم، وأنه نشأ عن التقاء الحضارات مع بعضها نوع من الدوائر الثقافية، وحدثت بعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة، الأمر الذي يفسر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات المركزية أو الأساسية. إلا أن أصحاب هذا الرأي لم يقدموا الدلائل على وجود تلك المراكز، أو تتبع حركات الاتصال بينها، ودراسة النتائج المترتبة على ذلك بطريقة منهجية سليمة. ورغم هذا الاختلاف في وجهة النظر بين المدرستين البريطانية والألمانية النمساوية إلا أنهما اتفقتا في رفض حتمية تطور المجتمعات كلها وفقاً لقانون ثابت، وأنه من غير المعقول أن يتشابه التكوين العقلي عند جميع البشر. وليس من الممكن أيضاً أن تتمتع جميع الشعوب بقدر متماثل من الخلق والابتكار، ولكنها تستطيع بسهولة أن تستعير من غيرها ما تعجز عن ابتكارها بنفسها.

ولم يقتصر التفسير الانتشاري على أوربا وحدها، بل ظهرت في أمريكا حركة مماثلة في نقدها للتفسير التطوري للثقافة، والاتفاق من ناحية المبدأ مع كل من (اليوت سميث) و(ولهم شميدت) على فكرة انتشار السمات الثقافية والاستعارة بوصفها أساسًا لتفسير التباين الثقافي بين الشعوب. وبصدد فكرة المراكز الحضارية أو الدوائر الثقافية التي يقدمها

الانتشاريون الأوربيون ترى المدرسة الأمريكية أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولاً قبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد، ثم انتقل إلى مناطق أخرى. وبذلك رفض الانتشاريون الأمريكيون ما ذهب إليه الأوروبيون من الزعم بعدم إمكان التطور المستقل، وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين، ويعد (فرانز بواز) الرائد الأول لهذا الاتجاه التاريخي التجزيئي في أمريكا، حيث عارض الفكرة القائلة بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطور الثقافي، ورأى أن أية ثقافة من الثقافات ليست إلا حصيلة نمو تاريخي معين. ونتيجة لذلك فالباحث الأثنولوجي الذي يدرس الثقافات يجب أن يوجه اهتمامه نحو دراسة تاريخ الجزئيات المختلفة والعناصر المكونة لثقافة ما كل على حدة، وذلك قبل الوصول إلى تعميمات بشأن المجتمع الإنساني وثقافته ككل.

ورغم ما أثير في بعض الأحيان من أن هذا المنهج التاريخي التجزيئي يستلزم وقتاً طويلاً قد يؤدي إلى نتاج ضئيل، إلا أن (بواز) أصر على أنه لكي تصبح الأنثروبولوجيا علماً فلا بد أن تعتمد في تكوين نظرياتها على الحقائق الملموسة والمشاهدات، لا على التخمينات أو الفروض الحدسية.

لقد أشار (بواز) (الذي كان متخصصاً في الجيولوجيا والجغرافيا) قبل أن يشتغل بالأنثروبولوجيا، إلى أنه من خلال دراسة الشكل والتوزيع الجغرافي لمصدر السمات الثقافية وهجرتها واستعارتها عن طريق الاتصال بين الشعوب، يمكن للباحث أن يستدل على كيفية نشأة الثقافة وتطورها، وبالتالي يمكن الوصول في النهاية إلى نظرية تتوافر فيها عناصر الصدق

والبرهان لتفسير تغير المجتمعات الإنسانية وتطور النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية وفي إطار هذا المنطلق النظري استخدم (فرانز بواز) مصطلح المناطق الثقافية، ليشير إلى مجموعات من المناطق الجغرافية التي تتصف كل منها بنمط ثقافي، معين بغض النظر عن احتواء كل من هذه المناطق على عدة من شعوب أو جماعات. وفي تطبيق هذا المفهوم على ثقافات قبائل الهنود الحمر بأمريكا أمكنه حصر سبع مناطق ثقافية رئيسة أو تمييزها، يندرج تحتها هذا العدد الهائل من قبائل الهنود الحمر الذي كان يزيد على خمسمائة قبيلة في الوقت الذي نزح فيه الأوربيون لاستعارة القارة الأمريكية، وبهذا يشير مفهوم المنطقة الثقافية إلى طرائق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التي تتميز باشتراكها في عدد من مظاهر الثقافة نتيجة لدرجة معينة من الاتصال والتفاعل.

ولقد لاحظ (بواز) أن منطقة السهول في أمريكا الشمالية يوجد فيها عدة جماعات هندية، لكل منها ثقافتها المميزة، ولكل منها اسمها القبلي ولغتها واستقلالها، إلا أنه اكتشف أن هناك - مع ذلك - عدداً من السمات الثقافية المشتركة بينها جميعاً. فقد كانوا مثلاً يصطادون الجاموس للغذاء، ويبنون المساكن على أعمدة مع تغطيتها بالجلود التي يستخدمونها أيضاً في صنع الملابس. وكان رجال هذه القبائل ينقسمون إلى مجموعات من المدافعين يسكنون في معسكرات على شكل دائري، ويمارسون في عباداتهم طقوساً مماثلة. وهكذا جاء مفهوم المنطقة الثقافية أو اصطلاحها بمنزلة تصنيف وصفي وتحليلي للثقافات، الأمر الذي يسهل المقارنة بين

الثقافات، والوصول إلى تعميمات بشأن الثقافة الإنسانية كلِّها. وأصبح من الممكن (مثلاً) أن تعقد المقارنات بين ثقافتين، مثل: ثقافة هنود السهول بأمريكا (التي تتميز بوجود الجاموس الوحشي الذي يعتمد عليه السكان في منطقة السهول العظمى اعتماداً كبيراً)، والثقافة النيلية الحامية التي تنتشر بين عدد كبير من قبائل شرق أفريقيا.

وفي هذا الإطار النظري والتحليلي أصبح هدف المدرسة الأمريكية بزعامة (بواز) هو الدراسة التاريخية الدقيقة للعناصر المختلفة لثقافة معينة (الهنود الحمر مثلاً) وتحليل كل جزء أو عنصر من حيث مصدر نشأته وتطوره واستخدامه، وتتبع عمليات هجرته أو استعارته بين الشعوب المختلفة. ونتج عن هذا الاتجاه الانتشاري بصفة عامة أن بدأ الأنثروبولوجيون ينظرون إلى الثقافات الإنسانية على أن لها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملامح الرئيسة التي تميزها عن غيرها، وذلك على عكس التطوريين الذين رأوا أن الثقافات متشابهة، وأن الاختلاف الوحيد بينها يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي والاقتصادي. وبهذا يرجع الفضل إلى المدرسة الانتشارية في طرح فكرة تعدد الثقافات وتنوعها والنسبية الثقافية التي أصبحت منذ ذلك الحين من أهم المفهومات الرئيسة في الفكر الأنثروبولوجي وتطوره، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها.

وقد لاقى هذا المصطلح رواجاً وقبولاً خاصة في عصر كانت فكرة

النسبية عند أينشتاين في العلوم الطبيعية قد حازت الاهتمام النظري والاستخدام العملي.

إن الشعوب - عادة ومنذ القديم - تميل إلى الاعتقاد بأن تراثها الفكري وأسلوب حياتها يمثلان (في نظرها) الأفضل دائماً، المتميز عن غيره من معتقدات وثقافات الآخرين، ولكن هذا التحيز الثقافي أو الاعتداد بالجنس - كما يشار إليه في بعض الكتابات العربية - يجب أن لا يشكل أساساً للنظر إلى الثقافات الأخرى، والتعامل أو الاتصال بين الشعوب. فكل ثقافة لها معنى وقيمة يتناسبان مع المكان والزمان والخبرة الإنسانية في مواءمتها مع البيئة، وفي إطار ظروفهما التاريخية. فالثقافة ظاهرة نسبية، بمعنى يجب عند نظرنا إلى ثقافات الشعوب في هذا الإطار أن لا نحكم عليها بالخطأ أو الصواب، أو بالقبول أو بالرفض.

وقد اتصفت كتابات المشاهدين والرواة والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى عن الثقافات الأخرى بالتحيز الثقافي؛ وذلك لأنهم نظروا إلى الوقائع المشاهدة من منطلقاتهم الفكرية والثقافية، وتصوراتهم عن الحياة والأفراد، وحكموا على ما شاهدوه بالبدائية أو الهمجية، أما النسبية الثقافية فتمثل مدخلاً، مفهوماً رئيساً للاتجاه الموضوعي النسبي في الدراسات الأنثروبولوجية. فالأنثروبولوجيون - نظرياً على الأقل - لا يفضلون ثقافة على أخرى، وإنما يجدون في كل الثقافات مظهراً أو وسيلة عملية لحل مشكلات الإنسان في بيئة معينة وزمن محدد.

فمن وجهة النظر الأنثربولوجية يمثل مفهوم «النسبية الثقافية» في حقيقة الأمر دعوة إلى الأخذ بضرورة تنوع الشعوب واحترامها، ومحاولة دراستها وتفهمها والوصول إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات، الأمر الذي يساعد على فهم أفضل للطبيعة الإنسانية وتفسير سلوك الأفراد كافة، والتعرف على أنماط الحياة الاجتماعية في الحاضر والمستقبل. هذا ويجب أن ننوه في هذا المجال إلى أن الدعوة إلى النظر إلى سلوك الأفراد أو الجماعات في الثقافات المختلفة في السياق العام للقيم والقواعد التي تحكم هذا السلوك لا يعني أن كل أشكال السلوك الإنساني مقبولة، فهناك الكثير من الاتجاهات والمعتقدات والممارسات التي قد تخالف أو تناقض ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية المعاصرة من قيم عليا وحقوق إنسانية، نذكر من بين تلك الممارسات: الحروب الاستعمارية، والإرهاب والقتل الفردي أو الجماعي، وبعض العادات والتقاليد التي قد لا تتواءم مع متطلبات الحياة العصرية، وتتنافى مع رغبة الشعوب في التقدم وتحسين نوعية الحياة. فالنسبية الثقافية لا تدعو إلى قبول الأمور على علاتها، وإنما للعمليات الثقافية، الأمر الذي يساعدنا على تطور فهمنا لسلوك الشعوب الأخرى وعلى فاعلية التعامل معها في إطار من الفهم المشترك والاحترام المتبادل.

ثانياً - المدرسة البنائية - الوظيفية:

نشأ الاتجاه البنائي - الوظيفي لدراسة الثقافات الإنسانية في الوقت

الذي ظهرت فيه نظريات الانتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوربا كرد فعل عنيف إزاء النزعة التطورية. واتصف الاتجاه البنائي الوظيفي بأنه لا تطوري، وبالتالي لا تاريخي، إذ ركز على دراسة الثقافات كلاً على حدة في واقعها وزمنها الحالي. فالوظيفة إذن ليست على دراسة متزامنة وإنما آنية؛ ولذلك اختلفت كليَّةً عن الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها كل من التطوريين والانتشاريين على حد سواء.

إن رفض الوظيفيين للمنهج التاريخي يضمن - في نظرهم - الطريقة العلمية لدراسة الثقافات الإنسانية، زد أن العلم لا يهتم بتاريخ الظاهرة التي يبحثها قدْر تركيزه على الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الظاهرة كلها وعلاقتها بغيرها من الظواهر الأخرى ويؤدي هذا - في النهاية - إلى الوصول إلى القوانين التي تحكم الظاهرة (موضع الدراسة) من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها.

تبلور الاتجاه البنائي - الوظيفي في مجال الأنثروبولوجيا عن طريق الأفكار والكتابات اللتين طرحهما كلٌّ من العالمين البريطانيين (برونسلو مالينفسكي)(١٨٨٤-١٩٤٢) و(راد كليف براون) (١٨٨١-١٩٥٥)، وتجدر الإشارة إلى أن كليهما مدين بكثير من أفكاره واتجاهاته النظرية إلى المفاهيم التي قدمها العالم الفرنسي (إيميل دوركايم)، الذي يعد في حقيقة الأمر حلقة ربط وهمزة وصل بين الفكر الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر والاتجاهات الجديدة للفكر الاجتماعي التي ظهرت في بداية القرن العشرين. فقد اهتم (دور كايم) بدراسة الطريقة التي تعمل بها المجتمعات

الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وبذلك اختلف كثيراً عما كان سائداً في القرن التاسع عشر من ناحية الدراسة التاريخية لتطور المجتمعات الإنسانية والسمات الثقافية. ومما هو جدير بالذكر أن الاتجاه البنائي الوظيفي يعبر في جملته عن منهج دراسي تم اشتقاقه عند استخدام المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية، وأنه لم يعد قاصراً على الأنثروبولوجيين، وإنما تناوله علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق والتعديل على يد (تلكوت بارسونز وجورج ميرتون)، كما أنه ارتبط بالعلم الطبيعي، وبخاصة علوم الحياة والكيمياء والميكانيكا.

ويرى (مالينوفسكي) أن ثقافة أيٍّ مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتي حصرها في التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد مثلاً أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يمكِّنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي. ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية فمن الضروري إذن في رأي (مالينوفسكي) أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب (مثلاً) ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لإحكام الضبط الاجتماعي، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى نشوء تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار.

أما عن الفنون والرقص والشعائر الدينية، فتلك تمثل الجانب الروحي والرمزي الذي تستمد منه النظم الأخرى تكوينها وفاعليتها، وفي إطار هذا التنظيم المادي والروحي يذكر (مالينوفسكي): أنه يمكن للأفراد أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوباً معيناً للحياة، ويضمن لهم إشباع حاجاتهم البيولوجية الأساسية.

ربط (مالينوفسكي) الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالاحتياجات الإنسانية، فالثقافة في رأيه كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي، بحيث إنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عضو من أعضائه إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم، ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوي للإنسان فإن دراسة الدور أو الوظيفة التي يؤديهما كل عنصر ثقافي تمكن الباحث الأثنولوجي من اكتشاف ماهيته وضرورته. فالعنصر الثقافي لا يمكن فهمه - في نظر مالينوفسكي - عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره كما دعا إلى ذلك (بواز)، وإنما من خلال دراسة وظيفته الفعلية، وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى يترتب على ذلك ضرورة دراسة ثقافات الشعوب كل على حدة في إطار وضعها الحالي لا كما كانت عليه أو كيف تغيرت.

وبصفة عامة يمكن القول: إن (مالينوفسكي) قد قدم مفهوم الوظيفة بوصفها أداة منهجية لتمكن الباحث الأنثروبولوجي من إجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة أثناء وصفه للثقافة البدائية. فمفهوم الوظيفة في نظر (مالينوفسكي) يعني الدور أو الإسهام الذي يقوم به كل نظام اجتماعي في حياة المجتمع كلِّه؛ ولذلك لا يمكن لنا فهم وظيفة أي نظام اجتماعي في

مجتمع ما، بسيطاً كان أو مركباً، إلا في ضوء علاقة وظيفة (أو وظائف) هذا النظام مع وظيفة (أو وظائف) النظم في تحليل الثقافة البدائية إلى عناصر جزئية تسهل معها الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التي تسير بها الأمور في المجتمع، والتي تعمل على تماسكه واستمراره. فالنظام الاجتماعي في نظر (مالينوفسكي) هو نسق منظم، وهادف لجهد وإنجاز إنساني.

وإذا انتقلنا إلى (راد كليف براون) مؤسس المدرسة البنائية وجدنا أنه قد قام بدور رئيس في بلورة الفكر البنائي وتدعيمه في الدراسات الأثنولوجية منذ بداية القرن العشرين وفي توجيه الأثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة، والابتعاد عن الفكر التطوري بافتراضاته التاريخية، إلا أنه يختلف مع (مالينوفسكي) في تفسيره للثقافة في إطار بيولوجي. فقد اتجه (راد كليف براون) نحو دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً اجتماعياً بنائياً وظيفياً متأثراً في ذلك بكتابات (أميل دور كايم)، الذي طرح فكرة: أن الوظيفة التي تطبق على المجتمعات الإنسانية تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية. وانطلاقاً من هذا المفهوم تصوَّر (راد كليف براون) أنه كما أن للجسم الإنساني بناءً، أو تركيباً متكاملاً، فإن المجتمع (أيضاً) له تركيب أو بناء اجتماعي يتكون من «الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض، وكل واحد منهم متماسك مع الآخر عن طريق علاقات اجتماعية مقررة.

هذا ويرتبط استمرار هذا البناء بعملية الحياة الاجتماعية ذاتها، بمعنى أن الحياة الاجتماعية ذاتها في أي مجتمع معين هي التي تكوِّن ذلك البناء

وتحافظ على كيانه.

ففي مقالة عن «البناء الاجتماعي» يوضح (راد كليف براون) أنه يندرج تحت المفهوم كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر، كما يدخل أيضاً التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية. ويستطرد (راد كليف براون) القول موضحاً: «إن الحقيقة العينية التي نهتم بها في دراستنا للبناء الاجتماعي هي تلك الفئة من العلاقات القائمة بالفعل في لحظة معينة بالذات من الزمان، والتي تربط بين جماعة معينة من الناس، فملاحظاتنا المباشرة تنصب في الواقع على مثل هذه الحقائق، ولو أنها ليست الشيء الذي نحاول أن نصفه في كل تفاصيله ودقائقه. فالعلم - من حيث هو متميز عن التاريخ أو تراجم حياة الأفراد - لا يهتم بالجزئي أو بالشيء الفريد وإنما يهتم فقط بالعام، أي بالأنواع، وبالأحداث التي يتكرر وقوعها. فالعلاقات القائمة بين: أ، ب، ج مثلاً وكذلك السلوك هي كلها أمور قد ندونها في مذكراتنا أثناء الدراسة الحقلية. ثم نستخدمها كأمثلة للوصف العام، ولكن الذي نحتاج إليه للأغراض العملية دراسة صورة البناء، فإذا لاحظت (مثلاً) في إحدى القبائل الأسترالية عدة حالات لنوع السلوك القائم بين الخال وابن الأخت فإنني أفعل هذا لكي أسجل بكل دقة الصورة العامة أو السوية لهذه العلاقة مجردةً من كل تغيرات الأمثلة الجزئية رغم وضع هذه الاختلافات في الحسبان.

وهذا التمييز بين البناء من حيث هو حقيقة عينية موجودة بالفعل يمكن ملاحظتها مباشرة، والصورة البنائية - بالشكل الذي يصفه لنا الباحث الحقلي - يمكن توضيحها إذا نظرنا إلى استمرار البناء الاجتماعي خلال الزمن، فاستمرار هذا البناء ليس استمراراً استاتيكياً كاستمرار مبنى من المباني، وإنما هو استمرار ديناميكي يشبه استمرار البناء العضوي للجسم الحي، فالكائن العضوي يتجدد بناؤه باستمرار طوال حياته، وكذلك الحياة الاجتماعية تتجدد باستمرار البناء الاجتماعي.

وفي معرض المقارنة بين (مالينوفسكي) و(راد كليف براون) ربما يمكن القول: إنه إذا كان السؤال الرئيس عند (مالينوفسكي) - والذي حاول الإجابة عنه في سلسلة من الكتابات عن أهالي جزر التروبرياند في شرق غينيا الجديدة - وهو كيف تعمل مجموعة من العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية، لتفي بالاحتياجات الجسمية والنفسية للأفراد فإن (راد كليف براون) قد وجه بحوثه في جزر الأندمان نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي، أي: كيف يمكن الحفاظ على التضامن والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين؟ وبالتالي فقد رفض كلاهما فكرة تجزئة عناصر الثقافة، أو مكونات البناء الاجتماعي إلى وحدات صغيرة يعمل الباحث على تقصي تاريخ منشئها وانتشارها، أو تطورها عبر الزمان أو المكان، كما دعا إلى ذلك التطوريون أو الانتشاريون وقد تطلب هذا المنطلق النظري الاتصال المباشر بالثقافات - موضع الدراسة - من خلال منهج الدراسة الحقلية لوصفها في حالتها الراهنة، أو الآنية، والذي كان

(مالينوفسكي) الفضل، وربما أكثر من (راد كليف براون) في طرحه وتدعيمه. وفي أعقاب نشر كل من (مالينوفسكي) و(راد كليف براون) لأعمالهما وجد اتجاههما البنائي الوظيفي في دراسة الثقافات الإنسانية قبولاً واسعاً وبخاصة في وقت بدأت المدرسة التطورية تفقد اتباعها ومؤيديها، وكذلك عجزت المدارس الانتشارية عن أن تجد الكثير من التأييد في غيبة البرهان على صدق فروضها وبسبب الرغبة وخاصة من قبل الإدارات الحكومية الممولة للبحوث، والجمعيات المدرسية أيضاً في أولوية الحاجة لدراسة ثقافات الشعوب المستعمرة أعطى ذلك الاتجاه البنائي الوظيفي دفعة قوية، وانتشاراً سريعاً في أوروبا وأمريكا على حد سواء، بخاصة بعد أن أثر مالينوفسكي في عقول طلاب جامعة بيل خلال خمس سنوات (١٩٣٩-١٩٤٤) بمحاضراته عن قواعد المنهج الحقلي، كما كان (لراد كليف براون) تأثير في الأمريكيين خلال فترة تدريسه بجامعة شيكاغو من عام (١٩٣١-١٩٣٧).

وبصفة عامة - كنتيجة من نتائج الاتجاه البنائي الوظيفي الهامة - نجد حركة واسعة بين الأنثروبولوجيين للخروج من أوروبا في الثلاثينيات والأربعينيات لإجراء دراسات حقلية في أماكن متعددة من المستعمرات لجمع مادة أولية لوصف الثقافات وتحليلها في سياقها الواقعي. وقد نتج عن ذلك الكثير من الكتابات الوصفية والتحليلية للقبائل والمجتمعات المحلية الصغيرة بالمستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا، الأمر الذي أثرى الأثنولوجيا بمادة أولية جمعت بطريقة منهجية تفوق - ولا شك - تلك

المعلومات التي كان قد جمعها الرحالة والمستكشفون في القرون السابقة. ولعل من بين الإسهامات التي أتت بها المدرسة البنائية الوظيفية هو تأكيد خاصيَّة نسبيَّة الثقافة الإنسانية، الأمر الذي ساعد على تقويض دعائم فكرتي العنصرية والتعالي الغربيتين، حيث أوضح التحليل البنائي الوظيفي للمجتمعات البدائية أن الثقافة أسلوب حياة له مقوماته العقلانية، كما يعكس مواءمة مقبولة بين الناس والبيئة والاحتياجات الفردية.

وبصدد دراسة استخدام مصطلح «المجتمعات البدائية» ربما تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره الأنثروبولوجي البريطاني الشهير، (إيفانز بريتشارد) من أن كلمة بدائي هي في حقيقة الأمر اختيار غير موفق لوصف المجتمعات المنعزلة غير الأوروبية، والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي، إلا أنها أصبحت اصطلاحاً واسع الانتشار إلى حد لا يمكن تجنبه. وعلى أية حال يستخدم الأنثروبولوجيون هذا الاصطلاح ليشيروا إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو شعب العلاقات الاجتماعية. وتتصف المجتمعات البدائية (عادة) ببساطة الفنون والأدوات، والنظم الاقتصادية وقلة التخصص في الوظائف الاجتماعية إذا قورنت بالمجتمعات الأوروبية إلى جانب ذلك يضيف بعض الأنثروبولوجيين بعض المقاييس والمعايير الأخرى مثل عدم وجود تراث مكتوب، وبالتالي عدم وجود أي فن متقدم أو علم لاهوتي (ديني) منهجي منظم.

لقد سبق أن أوضحنا في المبحثين السابقين كيف أن فكرة دراسة المجتمعات البدائية قد جذبت انتباه المشتغلين دراسة النظم الاجتماعية منذ

القرن الثامن عشر، فقد نظر إليها الفلاسفة على أنها تمثل الحالة الطبيعية التي ظنوا أن الإنسان كان يعيشها قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية. اهتم بها بعد ذلك علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر؛ لاعتقادهم أنها تقدم لهم الدلائل والشواهد التي تساعدهم في البحث عن أصول النظم الاجتماعية، وتتبع مراحل تطورها، أما الأنثروبولوجيون في القرن العشرين - وبخاصة الوظيفيون - فقد وجدوا في المجتمعات البدائية أنسب أشكال الحياة الاجتماعية التي تساعد على دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء مترابطة في النسق الاجتماعي. كذلك يسهل في هذه المجتمعات القيام بالملاحظة المباشرة لوقائع الحياة اليومية، والوقوف على ترابط النظم الاجتماعية بعضها مع بعض في صورة متكاملة. ولعل من الأسباب التي جعلت أنثروبولوجيا الربع الأول من القرن العشرين تركز أيضاً على هذا النوع من المجتمعات دون غيره هو تعرضها للتغير واحتمال الاندثار السريع لملامح الثقافة البدائية، نتيجة تعرض هذه المجتمعات إلى الاحتكاك الثقافي بالعالم الغربي.

رغم التبريرات والأسباب التي قدمها (إيفانز بريتشارد) لاختيار المجتمعات والثقافات البدائية كمجال دراسي وحقل عملي للأثنولوجيا فقد ربط الكثيرون بين هذا الاختيار وأيدلوجية الأهداف الاستعمارية لدول أوربا الغربية، وأوضحوا أن الصلة بين الأثنولوجيا والاستعمار التي بدأت منذ نشأتها إبان القرن التاسع عشر لم تنتهِ؛ وذلك لارتباطها الوثيق بسياسة الإدارة غير المباشرة للمستعمرات البريطانية بصفة خاصة، فقد قامت هذه

السياسة على أساس دعم فكرة التطور التدريجي أو البطيء للمجتمعات الواقعة تحت الاستعمار، الأمر الذي يدعو إلى بقاء الأنظمة السياسية التقليدية في تلك المجتمعات على الحال التي هي عليه وبالقدر الذي يسمح لسلطات الاحتلال بمباشرة إدارة هذه المستعمرات واستغلال مواردها دون عناء.

ويؤخذ على الوظيفيين الإنجليز تأييدهم هذه السياسة؛ لأنها تتضمن - من وجهة نظرهم - استمرار الحياة التقليدية لشعوب المستعمرات والتي كانوا قد تعاطفوا معها ووجدوا فيها مجالاً طيباً للدراسة الأنثروبولوجية الحقلية التي شجعتها ومولتها الحكومة البريطانية. وعلى المستويين النظري والمنهجي فقد رأى بعضهم قصوراً كبيراً في المدرسة البنائية الوظيفية يتمثل في أن الدراسات المتزامنة قد أغفلت - أو على الأقل - قللت من أهمية دراسة ظاهرة التغير وتحليلها التي توجد في كل المجتمعات ولو بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة؛ لهذا رأى كثير من الباحثين أن أعمال الوظيفيين تضمن وصفاً للمجتمعات البدائية، وكأنها في حالة ثبات واستقرار دائمَيْنِ، وهذا أمر يتنافى مع طبائع الأشياء وأمور الحياة. ويذكر الذين يدافعون عن اتجاهات الوظيفيين أنهم لم يهملوا في حقيقة الأمر دراسات التغير في حد ذاتها، وإنما وجدوا أن دراسة تاريخ النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية لن يساعد الباحث على فهم الوظائف الفعلية لتلك النظم أو الترابط القائم بين بعضها.

فقد ذكر (مالينوفسكي) في كتابه «ديناميكيات التغير الثقافي» الذي نشر بعد وفاته أن دراسة التغير الثقافي لا تستلزم التأويل التاريخي؛ لأنها - في الحقيقة - تتضمن مقارنة بين ثقافتين تسودان مجتمعين مختلفين، وفي فترتين زمنيتين مختلفتين، الأمر الذي يدعو إلى عدم تتبع الأحداث والظواهر الثقافية عبر الزمن. فالاتجاه الوظيفي لدراسة التغير الثقافي أو الاجتماعي في رأي (مالينوفسكي) يقوم على افتراض وقت محدد أو فترة معينة لتكون بمثابة نقطة صفر وفاصل زمني بين فترتين مختلفتين لكل منهما ثقافة خاصة، وبهذا تتم المقارنة بين الأوضاع التي كانت سائدة قبل الخط الفاصل أو نقطة الصفر والأوضاع القائمة بعدها. وبهذه الطريقة يتسنى للباحث الأثنولوجي دراسة كل ثقافة في إطارها التكاملي وكيانها المستقل وفترتها الزمنية الخاصة بها.

وفي مجال منهج الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية للمجتمعات البدائية نود الإشارة أولاً إلى أنه سبق أن ذكرنا أن الأثنولوجيا كانت قد اعتمدت في نشأتها النظرية واستقلالها الأكاديمي على معلومات ومادة مستقاتين من مصادر ثانوية، بمعنى: أن الباحثين الأنثروبولوجيين لم يقوموا - بأنفسهم - بإجراء الملاحظة أو المشاهدة لما وصفوه من سلوك. وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك هو (لويس مورجان) الذي كان بحكم طبيعة عمله كرجل قانون بين قبائل الأيركوا الهندية قد تهيأت له الفرصة للملاحظة، والتحدث مع أفراد القبيلة. وعلى عكس التطوريين فإن اهتمام الوظيفيين البالغ بإظهار الترابط بين الأشياء كلها بداخل ثقافة معينة

قد تطلب ضرورة الملاحظة المباشرة عن طريق الدراسات الحقلية التي سبق أن بدأت أهميتها تتضح في عام (١٨٩٨) م عندما قامت بعثة جامعة كمبردج البريطانية بدراسة منطقة مضايق توريس في المحيط الهادي كما ذكرنا في المبحث السابق. هذا وقد ساعد (مالينوفسكي) على تطوير الدراسة الحقلية ووضع أسسها المنهجية في ضوء دراساته العميقة في جزر التروبرياند التي ذهب إليها قبل الحرب العالمية الأولى، ومكث هناك حتى نهايتها نحو (أربع سنوات)، وبذلك ضرب (مالينوفسكي) الرقم القياسي للفترة الزمنية المتواصلة التي يمكن أن يقضيها الباحث الأنثروبولوجي في المجتمع موضع الدراسة.

تعلَّم (مالينوفسكي) لغة سكان هذه الجزر وعاش نمط معيشتهم نفسه مما ساعده على التعمق في فهم ثقافتهم وتحليل مكوناتها والربط بينها، قضى (مالينوفسكي) معظم أوقاته يؤلف ويكتب المقالات عن تجربته الحقلية ونتائج دراسته التي تضمنت وصفاً وتحليلاً للأحوال الاقتصادية وأشكال الضبط الاجتماعي ونظم الزواج وعلاقات القرابة عند سكان جزر التروبرياند إلى جانب السحر والدين والطقوس عندهم.

نشر (مالينوفسكي) في عام (١٩٢٢) كتابه المشهور «بحارة غرب المحيط الهادي الجسورون» ووضع فيه أسس الدراسة الحقلية وقواعدها ومتطلباتها. إن القارئ لمقدمة هذا الكتاب ليستمتع حقّاً بوصف (مالينوفسكي) للظروف التي أحاطت بإجراء الدراسة، شارحاً بأسلوب واضح وممتع وقائع خبرته، ومستخلصًا مسائل منهجية، وأساسية للدراسة

الحقلية. إن قيمة الدراسة الحقلية - في رأيه - تكمن في أن يتفهم الباحث الأثنوجرافي بعمق كيف ينظر الأهالي إلى العالم المحيط بهم وكيف يتعاملون معه. ويمكن أن نقدم فيما يلي بعض أساسيات منهج الدراسة الحقلية وذلك على النحو التالي:

أ- يؤكد (مالينوفسكي) أنه لا يمكن الوصول إلى فهم عميق ودراسة مركزة وشاملة لثقافة جماعة ما ما لم يقم الباحث بالاتصال المباشر والمعاشرة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة. ولا يكفي أن يذهب الباحث إلى منطقة الدراسة كزائر ثم يعاود زياراته إلى القبيلة أو الأفراد الذين يصف حياتهم، بل يجب على الباحث أن يندمج مع الجماعة التي يدرسها اندماجاً كلياً، ويعيش حياتهم قدر الإمكان بحيث يستطيع ملاحظة مظاهر نشاطهم اليومي، ويتابع حياة الجماعة من داخل الجماعة وليس من خارجها. ويقترح (مالينوفسكي) أنه لابد من أن يقضي الباحث عاماً كاملاً على الأقل في مجتمع الدراسة حتى يتسنى له ملاحظة أوجه نشاط الجماعة وتحليلها في الفصول المختلفة وعلى مدار السنة.

ب- يوصي (مالينوفسكي) بتعليم الباحث الأنثروبولوجي لغة المجتمع موضع الدراسة؛ لأن الاستعانة بالمترجمين لا تساعد الباحث كثيراً على تكوين علاقات شخصية مع أفراد الجماعة في المجتمع موضع الدراسة، كما أنه قد يغيب عن الباحث فهم الكثير نتيجة للصلة بين اللغة والثقافة، الأمر الذي لا يستطيع الحصول عليه عن طريق الترجمة، بخاصة أن معرفة المترجمين للغات الأجنبية تكون - غالباً - محدودة.

جـ- يؤكد (مالينوفسكي) أن إقامة الباحث الأنثروبولوجي بمجتمع الدراسة، وتعلم لغة سكان المجتمع أمران ضروريان، لأنهما يساعدان على ما أسماه «الملاحظة بالمشاركة» وهي طريقة جمع المادة عن طريق الاشتراك في الأنشطة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة، بمعنى أن الباحث لا يقف موقف المشاهد عن بعد، وإنما يلجأ إلى المشاركة الفعلية فيما يقوم به الأفراد في المناسبات المتعددة والمجالات المختلفة التي تشكل أساسًا جوهريًا في فهم الثقافة، فالباحث في رأي (مالينوفسكي) لا يمكنه الوصول إلى حقيقة المعاني الرمزية أو الضمنية لسلوك معين في مناسبة خاصة دون أن يكون له فرصة الجمع بين الملاحظة والمشاركة في الوقت نفسه.

وبعد هذا العرض الموجز لجوهر الاتجاه البنائي الوظيفي وبعض قواعد منهج الدراسة الحقلية، يمكن القول: إن عشرينيات القرن العشرين ثلاثينياته قد نقلت الأنثولوجيا من إطارها التقليدي القديم إلى منطلقها التجريبي الحديث، فالممارسة الميدانية التي ركز عليها الوظيفيون قد أعطت مفهوماً جديداً لدراسة المجتمعات البدائية، إذ هدفت إلى فهم حياة هذه المجتمعات كما هي من الداخل، وليس بقصد تصوير الأشكال الأولية للنظم الاجتماعية أو إعادة تركيبها، كما جاء في فكر المنهج التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية؛ وبذلك انتزع الوظيفيون الأنثولوجيا من منهج إعادة تركيب التاريخ الذي يقوم على أساس من الحدس والتأويل الظني، وأدخلوها في إطار الوصف والتحليل للحاضر والواقع الذي يستند إلى المشاهدة والمقارنة. فالباحث - على عكس الوضع في القرن التاسع عشر -

أصبح جامعاً للمادة ومحللاً ومنظراً لها في الوقت نفسه. وبهذا أحدثت المدرسة الوظيفية تطوراً كبيراً في المنهج والنظرة التحليلية لثقافات المجتمعات البدائية.

لقد ساد هذا الاتجاه إلى الدراسة الميدانية في إنجلترا آنذاك، وكان لكتابات (مالينوفسكي) - في الحقيقة - أثرها الكبير في جذب عدد كبير من الدارسين - من مختلف التخصصات - إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية التي اتخذها (مالينوفسكي) مركزاً له خلال الفترة من (١٩٢٤) إلى (١٩٣٨). كما نتج عن ذلك أن خرج عدد لا بأس به من هؤلاء الدارسين للعمل الحقلي في جزر نائية عن أوروبا وبخاصة في المحيط الأطلسي نتيجة جهودهم الميدانية بدراسات قيمة، نذكر من بينها دراسة (رايموند فيرث) الشهيرة «نحن أهل تيكوبيا» (١٩٣٦). واستمر الاهتمام بالدراسات الحقلية للمجتمعات البدائية وفقاً لتعاليم (مالينوفسكي) قائماً حتى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، إلى أن استطاع (راد كليف براون) أن يسيطر على الفكر الأنثروبولوجي الإنجليزي، وأن يوجهه بعيداً عن العمل الأثنوجرافي الميداني إلى الفكر النظري في إطار التحليل البنائي للعلاقات الاجتماعية داخل مجتمع الدراسة. وهكذا انتقل التوجيه الأنثروبولوجي بإنجلترا من لندن إلى أكسفورد حيث تركز أصحاب المدرسة البنائية مثل: (إيفانز بريتشارد) و(ماير فورتس) وعلى رأسهم (راد كليف براون) الذي تولى منصب الأستاذية بجامعة أكسفورد في عام (١٩٣٧).

ونتيجة لذلك، فقد بدأ الأنثروبولوجيون الاجتماعيون يهتمون بمسائل جديدة مثل: دراسات القرابة وبخاصة النظم السياسية، وفي نقل العمل الحقلي من المحيط الهادي إلى أفريقيا. ومن الجدير بالذكر هنا أنه ظهرت في عام (١٩٤٠) ثلاثة أعمال لها أهميتها في توجيه الفكر والدراسة الأنثروبولوجية في إنجلترا خلال فترة ما بعد الحرب. أولها كتاب «الأنساق السياسية الإفريقية» الذي ألفه (مايرونويتس) (وإيفانز - بريتشارد)، وقدم له (رادكليف براون)، وثانيهما وثالثهما كتابا (إيفانز - بريتشارد) عن «النوير» والنسق السياسي عند الأنيوك. وترجع أهمية تلك الأعمال إلى أنها تناولت موضوعات جديدة مثل: دراسة الأنساق السياسية لمجتمعات ليس لديها حكومة مركزية، كما كشفت تلك الأعمال أوجهاً جديدة للأنساق السياسية الانقسامية والتي حللت العلاقات القرابية بتلك المجتمعات وذلك على مستوى العلاقات الشخصية. إن هذه الدراسات - في مجملها - قد وضعت أساسيات الدراسات الحقلية للأنثروبولوجيين الإنجليز بمجتمعات أفريقيا خلال عقد الخمسينيات.

ثالثاً: الاتجاه التاريخي - النفسي:

ازدهر الاتجاه البنائي - الوظيفي في أوروبا وبخاصة بريطانيا، كما وجد أتباعاً له في بعض الجامعات الأمريكية كما رأينا. أما الاتجاه التاريخي التجزيئي الذي دعا إليه (بواز) ونشأت في إطاره الأثنولوجيا الأمريكية فقد بدأ يتعدل ويتجه في مسارات جديدة وذلك على يد عدد من تلاميذ (بواز)،

فهناك من طرح فكرة توسيع مفهوم التاريخ، وهناك من تأثر بما يجري في ميدان علم النفس وبخاصة على أيدي (سيجموند فرويد) (١٨٥٦-١٩٣٩) وتلاميذه، ورأوا إمكان فهم الثقافة عن طريق التاريخ إلى جانب الاستعانة ببعض مفاهيم علم النفس وطرقه التحليلية، وبرز أثر ذلك الاتجاه نحو الكشف عن التشكيلات أو الأنماط الثقافية عند الشعوب أو الجماعات الإنسانية.

فمن ناحية النظرة المعدلة لاستخدام التاريخ في الدراسات الأثنولوجية نجد أن الأمريكي (الفريد كروبر) (١٨٧٦-١٩٦٠) قد رأى أن التاريخ لا يعني فقط دراسة تتابع الظواهر والأحداث في الزمن كما فهمه الوظيفيون، وإنما يهدف في النهاية إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة، وبهذا يمكن استخدام التاريخ في دراسة الوقائع والأحداث الجارية في مجتمع معين، وعلى أساس هذا التوسع في مفهوم التاريخ عند (كروبر) تكون منهج يأخذ في الحسبان الزمان والمكان، تصبح الأثنولوجيا دراسة تاريخية في المقام الأول، ويكون هدفها التمييز بين النماذج أو الأنماط الثقافية التي يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة للشعوب.

وعلى الرغم من محاولة (كروبر) توسيع مضمون المنهج التاريخي إلا أن بعض تلاميذ (بواز) الآخرين وفي مقدمتهم (روث بنيديكت) (١٨٨٧-١٩٤٨) قد وجدوا أن التاريخ وحده لا يكفي لتفسير الثقافة، وذلك أنها - في تصورهم - مسألة معقدة تجمع بين التجربة التي اكتسبت عبر الزمن

وخلال التاريخ، والتجربة السيكولوجية، وأن أية سمة من السمات الثقافية تضم بذلك مزيجاً من النشاط السيكولوجي والثقافي بالنسبة لبيئة معينة، وكان من نتيجة ذلك أنهم لجؤوا إلى الاستعانة بمفاهيم علم النفس. وقد كانت دراسة (بنيدكيت) المشهورة «أنماط الثقافة» (١٩٣٢) بداية لبلورة هذا الاتجاه التاريخي النفسي لدراسة الثقافات. فقد أوضحت في هذا الكتاب ضرورة النظر إلى الثقافات في صورتها أو تشكيلها الإجمالي. فكل ثقافة في نظر الباحثة (روث بنيدكيت) ترتكز حول مبدأ أساسي أو محور رئيس يعطيها نمطاً أوتشكيلاً خاصاً بها ومميزاً لها عن غيرها من الثقافات. وقد قامت (بنيديكت) بإجراء دراسة مقارنة لعدة من ثقافات بدائية حيث أوضحت العلاقات القائمة بين «الصيغة الثقافية العامة ومظاهر الشخصية، كما تنعكس لدى الأفراد في تلك المجتمعات. وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه بينما بدأ (مالينوفسكي) نظرته للثقافة من الفرد، وعدّ الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات الفردية، بدأت (روث بنديكت) من «الصيغ الثقافية» وعدّت السلوك الفردي مجرد اتفاق وتواؤم مع التعاليم والمثل القيم والاتجاهات الثقافية الموجودة بالفعل».

إن محاولة الاستعانة بمفاهيم علم النفس في مجال الدراسات الأثنولوجية ليست بالأمر الجديد في حقيقة الأمر، إذ إنها كانت قد طرحت إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما لجأ بعضهم إلى الاستيطان للتعرف على أصل السمات الثقافية ونشأتها وبخاصة في مجال دراسات الظواهر الدينية والسحر والأساطير.

إلا أن هذا الاتجاه لم يزدهر خاصة تحت تأثير المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي رأت أن الظواهر الاجتماعية لابد أن تفسر في حدود علم الاجتماع، لا علم النفس كما جاء في كتابات (دوركايم) وبخاصة في كتابه الشهير عن قواعد المنهج في علم الاجتماع. ورغم استمرار الاعتراض لدى كثير من الأثنولوجيين في أمريكا والأنثروبولجيين الاجتماعيين في إنجلترا على استخدام علم النفس لتفسير الثقافة أو الظواهر الاجتماعية فقد وجد هذا الاتجاه التاريخي النفسي في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين فرصة طيبة للازدهار بسبب انتشار نظريات التحليل النفسي، وبخاصة دراسات الشخصية، وقد استعان بعض الأنثروبولوجيين بالمفاهيم النفسية التي قدمتها مدرسة (سيجموند فرويد) بصدد تحليل العلاقات القائمة بين الثقافة والفرد وتأثير كل واحد منهما بالآخر.

وربما كان من أهم الموضوعات التي ركز عليها الأثنولوجيون النفسيون دراسة التمييز بين الجماعات والثقافات تبعاً للخصائص النفسية السائدة فيها. وظهر نتيجة لذلك عدد من الدراسات التي عالجت موضوع الطابع القومي للشخصية والذي يهدف إلى تحليل المقومات النفسية الرئيسة وتفسيرها، والتي يتميز بها شعب دون آخر أو ثقافة دون أخرى. وقد ازدهرت هذه الدراسات لارتباطها بالدعاية وأحداث الحرب العالمية الثانية، وظهرت عدة من المؤلفات عن الشعوب المشتركة في الحرب، بخاصة اليابان. ولم يقتصر الأمر عند حد الدراسة النظرية، وإنما شمل (أيضاً) إمكان توظيف المادة الأنثروبولوجية لأغراض عملية.

ولعل من أهم الممارسات التطبيقية في هذا المجال دراسة (روث بنيدكت) بعنوان «زهرة الكريزتنم والسيف» (١٩٤٦) وهي تمثل دراسة الثقافة والشخصية اليابانية. وقد كان لهذه الدراسة قيمة كبيرة في بلورة السياسة الأمريكية نحو استسلام المحاربين اليابانيين في المحيط الهادي. فبناء على ما أوضحته هذه الدراسة عن أهمية الإمبراطور كرمز مقدس في العقلية اليابانية، واحترام الجنود الشديد للسلطة الحاكمة في شخص الإمبراطور، ومدى ولائهم له أبقت الحكومة الأمريكية على مركز الإمبراطور وأيقنت أنه من الحكمة أن يصدر الإمبراطور الياباني تعليمات الاستسلام لجنوده الذين كانوا يحاربون في جنوب شرق آسيا، وبهذا تم تفادي حقن كثير من الدماء التي كان من الممكن أن تسيل فيما لو طلبت القوات الأمريكية الغازية من الجنود اليابانيين الاستسلام. أوضحت الدراسة أن الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون قطعاً الاستسلام ويستمرون في القتال حتى الموت، ولكن تحت تأثير مبادئ الطاعة والولاء التقليدي للإمبراطور وخضوع هؤلاء الجنود لتعليماته.

كذلك نجد بعض كتابات الأنثروبولوجيا خلال الثلاثينيات والأربعينيات قد تناولت العنصرية ونقدتها، وذلك في مواجهة محاولات (رادولف هتلر) (١٨٨٩-١٩٤٥) عدّ العنصر الألماني من العناصر الدخيلة، وخلق نوع من البشر يتميز عن السلالات الأخرى في القدرات العقلية والجسمية ونتيجة لذلك أخذت مسألة السلالات والعناصر البشرية مكاناً مميزاً في الدراسات الأثنولوجية في ذلك الوقت بسبب الأحداث السياسية التي كانت واقعة حينذاك.

وفي الوقت نفسه ظهرت مدرسة ثقافية نفسية قوية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من روادها (كلايد كلوكهون) (١٩٠٥-١٩٦٠) و(مرجريت ميد) كما اشترك بعض علماء النفس مع الانثروبولوجيين في إجراء دراسات وتحليلات مشتركة. نذكر منها مثلاً: العالم النفسي (إبرام كاردنر) الذي اشترك مع الباحث الأمريكي (رالف لينتون) (١٨٩٣ ١٩٥٣) وغيره خلال الثلاثينيات من القرن العشرين في طرح مفهوم بناء الشخصية الأساسي الذي يشير إلى مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أية ثقافة. ركز (كاردنر) على ما أسماه المنظمات أو النظم الأولية التي ترتبط بتربية الأطفال في سنواتهم الأولى والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى، ويفترض (كاردنر) أنه نتيجة لاشتراك مجموعة من الناس في نوع معين من النشأة والتربية خلال مرحلة طفولتهم، تسود سمات شخصية مشتركة بينهم عندما يكبرون، وترتبط هذه الصفات بالتشكيل النهائي للثقافة السائدة بين هؤلاء الأفراد. ومع أن النمط أو التشكيل الثقافي السائد لا يمكن أن يزيد أو يقلل من وجود الفوارق الفردية في نطاق الثقافة الواحدة، إلا أن العلاقة بين الأنماط الثقافية والشخصية الفردية والتأثيرات المتبادلة بينهما أمر يجب ألا يهمل في حالة دراسة الثقافات الإنسانية.

وكما كان الحال بصدد الترابط والحوار اللذين كانا قائمين بين الاتجاه البنائي الوظيفي في الأنثروبولوجيا والاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع، نجد أن حواراً وترابطاً آخر قد شمل الأنثروبولوجيا وعلم النفس. نذكر

مثلاً أن (مالينوفسي) اهتم بكتابات (فرويد)، وفحص نظريته عن المحرمات الجنسية في إطار المادة الحقلية التي كان قد جمعها من جزيرة التروبرياند. وفي هذا الصدد خالف (مالينوفسكي) تفسير فرويد لعلاقة الابن بالأم وغيرته من الأب في إطار ما أسماه بعقدة (أوديب)، وقدم بدلاً عنها تفسيراً وظيفياً. فالمحرمات الجنسية التي توجد في كل المجتمعات الإنسانية تمثل وسيلة يستطيع من خلالها تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء من الأقارب في العائلة الواحدة، ومن هذه العائلة والأقارب الآخرين على اختلاف درجات القرابة. إن تحريم العلاقات الجنسية بين الأفراد المكونين للعائلة النووية (الأم والأبناء، والإخوة والأخوات) يمنع في نظر (مالينوفسكي) ما قد ينشأ من صراعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس، الأمر الذي يفكك أواصر الأسرة ويهدم كيانها، وبالتالي يضعف المجتمع كله ويهدد تماسكه.

لقد عرضنا في هذا المبحث ثلاثة اتجاهات رئيسة، تبلورت وسادت خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، وذلك كرد فعل على نواقص النظرية التطورية، وبتأثير المناخ الفكري العام والأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة (خاصة) في الغرب.

وكذلك التطورات التي حدثت في موضوعات ومناهج العلوم بصفة عامة، والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة.

ومما هو جدير بالذكر أن تلك الاتجاهات المشار إليها لم ينشأ الواحد بعد

الآخر على النحو الذي عرضناه أو أن هناك تواريخ معينة، تحدد قيام أي اتجاه؛ وذلك لأن تلك الاتجاهات جميعها قد نشأت وتطورت وتبلورت خلال فترة الثلاثين أو الأربعين عاماً الأولى من القرن العشرين، وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب.

* * *

obeikandl.com